الرحلة الحجازية في عيون العرب والغرب

أشواق فهد رقيب

ماجستير اللغه العربية – جامعة الطائف – المملكة العربية السعودية

"ليس من لزم جهة وطنه وقنع بما نمى إليه من الأخبار من إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع بين أيامه تقاذف الأسفار، واستخرج كل دقيق من معدنه، وإثارة كل نفيس من مكمنه"

أبو الحسن المسعودي

برزت الرحلة بوصفها نوعًا أدبيًّا يحمل خصائص أدبية ومعرفية متنوعة، فاشتملت مدونات الرحالة على نواحٍ جماليَّة، تمثلت في جمال العبارة وسلاسة الأسلوب. كما شكَّلت الرحلة مصدرًا ثقافيًّا للقارئ من خلال رصدها لجوانب الحياة المختلفة، واهتمامها بالأحوال الدينية والاجتماعية والتاريخية للمدن التي يقصدها الرحالة.

تلخيص

مع ازدهار الدولة الإسلامية واتساعها وترامي أطرافها، كان لابد من وجود سفارات لمعرفة أحوال الدولة في داخلها، كذلك مع الدول الأخرى، مما فتح لهم أبوابا لمعرفة علمية جديدة.

واحتلت الرحلة الحجازية مكانة مهمة في أدب الرحلات، وحظيت بعناية خاصة من الرحالة والعلماء والمؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامي ، كما فرضت الرحلة نفسها كخطاب أدبي يمتاز بتعدد أوجهه وأشكاله، فعلى مستوى المضامين يحتوي هذا الجنس الأدبي على معارف متنوعة؛ تاريخية وجغرافية وأدبية ودينية. وهذا ما جعلها تقترب من الأعمال غير الخيالية، لا سيما أنها مقترنة بشكل كبير مع السيرة الذاتية والتي تتضاءل فيها مساحة الخيال إلى حد كبير، غير أن كتب الرحلات يكون العنصر الروائي فيها السمة الفنية والأدبية الأبرز، ويشكِّل الخطاب أحد الركائز المهمة في النص الرحلي، ويعمل على تشكيل أبعاده ومضامينه المختلفة، سواء أكانت هذه المضامين أدبية، أو غير أدبية. وتعد اللغة من أهم مكونات الخطاب الحكائي للرحلة، إلى جانب الرؤية السردية، والبناء الزماني والمكاني، والوصف، والأحداث؛ فهي المادة التعبيرية الإبداعية التي يرسلها المبدع للمتلقي، والتي تحمل أفكاره ونواياه إلى جانب مضامين النص وأبعاده المرجعية .

أهمية البحث

وبالرغم من الأهمية الكبرى التي تحظى بها الرحلة كنوع أدبي مستقل، ومصدر ثقافي متنوع ومتجدد، إلا أن الاهتمام بها كان ولا يزال محدودًا مقارنة بالأنواع الأدبية الأخرى؛ فقد أخذت معظم الأنواع النثرية حظَّها من الدراسة، بينما ظلت الرحلة أشبه بشيء عملي تسجيلي، أو بكتابة تاريخية جغرافية، أو سيرة ذاتية.

ومن هذا المنطلق كان لا بد من إبراز هذا اللون الإبداعي واستكشافه بطريقة مغايرة، فقد اهتمت كثير من الدراسات التي تناولت أدب الرحلة بالجانب التاريخي، وعرض تاريخ نشأة الرحلة وأبرز أعلامها، ولم تحدِّد الخصائص التي تتمايز بها الرحلة عن غيرها من الأنواع النثرية الأخرى.

ولا شك أن ما تركه لنا الرحَّالة من كتابات قد احتوت على الكثير من النواحي الجمالية التي أصبحت مجالًا للتحليل الأدبي. كما تنوَّع الإنتاج الرحلي ما بين مقتضب ومسهب، وما غلب عليه الطابع الأدبي أو الطابع العلمي.

تساؤلات البحث

وهنا تكمن أهمية هذا البحث في محاولة استكشاف النوع الأدبي بطريقة مغايرة، وكان السؤال الأول: ما هي الرحلة؟ وما هي الرحلة الحجازية على وجه التحديد، وكيف تشكلت؟ وكيف تتخذ موقعها بين الأنواع الأدبية؟

أهداف البحث

وتتجه أهداف البحث نحو تدقيق النوع الأدبي للرحلة الحجازية، وموقعها بين الأنواع الأخرى المتداخلة معها؛ كالسيرة الذاتية، ثم السيرة النبوية، وكذلك السرد الروائي. وبيان أهمية الخطابات المعرفية في تشكيل هذا النوع الأدبي؛ كالخطاب الديني، والخطاب التاريخي، والخطاب الجغرافي. ومحاولة رصد الفروق بين الرحلة بوصفها نصًّا أدبيًّا، والجغرافيا بوصفها نصًّا علميًّا.

وكان منطلق اختياري للرحلة الحجازية؛ بسبب تلك العناصر الفنية التي تتميز بها نصوص الرحلات الحجازية، إضافة إلى تنوع الإنتاج الرحلي حول الحجاز؛ لما تحظى به من مكانة دينية وتاريخية في نفوس العرب والمسلمين.

ومن هذا المنطلق كان لابد من دراسة البناء الفني للرحلة الحجازية، ودراسة الأسلوب الفني في تدوين الرحلات، والنظر في بنية السرد الرحلي من خلال عناصر السرد الثلاثة (السارد، والمسرود، والمسرود له).

منهج البحث

ولتحقيق ما سبق كان لا بد من اتخاذ المنهج الوصفي؛ لنتعرف على ظاهرة الرحلة الحجازية، ووضعها في إطارها الصحيح كجنس أدبي يتمتع بخصائص أدبية مستقلة. وحتى يؤتي المنهج أكله؛ كان لا بد من تحديد عدد من النصوص الممثِّلة للرحلة الحجازية على اختلاف أنواعها.

وتتكون هذه الدراسة من أربعة مباحث وخاتمة وقائمة بالمراجع وذلك على النحو الآتي:

يبدأ المبحث الأول بتمهيد عن أدب الرحلة، وتعريفها وأهميتها ونشأتها في الأدب العربي والرحلة الحجازية تحديدًا، وأهم ما يميز كتب الرحلات التي صنفها العلماء، والحديث عن الرحلة الحجازية في القرنين السابع والثامن .

ثم جاء المبحث الثاني ليدور حول إشكالية النوع الأدبي بين السيرة الذاتية والسرد، وبين الواقع والخيال، وبين اللغة العادية والانزياح.

أما المبحث الثالث فيتناول جانبًا مهمًّا، وهو تعدديَّة الخطاب في الرحلة الحجازية بين الخطاب التاريخي والاجتماعي، والجغرافي المكاني، والديني الفكري.

وجاء المبحث الرابع ليدور حول بنية السرد، بين السارد، والمسرود، والمسرود له، ليختم البحث بأهم النتائج التي توصل إليها.

المبحث الأول أدب الرحلة قديمًا وحديثًا

١- مفهوم الرحلة:

- **لغة:**

جاء في «لسان العرب»: «الترحيل والارتحال بمعنى الإشخاص والإزعاج. يقال: رحل الرجل إذا سار، وأرحَلْتُه أنا. ورجل رحولٌ، وقوم رُحَّلٌ، أي: يرتحلون كثيرًا»[١].فالرحلة هنا تعني السير والمشي في مناكب الأرض، واشُتق من الرحلة: الراحلة، فنقول: «الرَّحُولُ والرَّحُولةُ من الإبل: التي تصلح أن ترحل، وهي الراحلة تكون للذكر والأنثى»[٢]. كما تطلق على السفرة الواحدة من بلد إلى آخر، " الرحلة السفرة الواحدة"[٣]. وتتعدد المعاني بتعدد المعاجم، بيد أن ما يهمنا هنا هو الرحلة بمعنى السير والضرب في الأرض والانتقال من جهة إلى أخرى، والرّحّالة: الشخص المسافر، المنتقل من بلد إلى آخر.

- **اصطلاحًا:**

تعددت مفاهيم الرحلة في الاصطلاح، إلا أنها تصب في قالب واحد، وهو فعل الانتقال والسفر من مكان إلى آخر، وقد عرفها **بطرس البستاني** بأنها «انتقال واحد أو جماعة – من مكان إلى مكان آخر، لمقاصد مختلفة وأسباب متعددة»[٤].

كما يرى **صلاح الدين الشامي** في كتابه «الرحلة عين الجغرافيا المبصرة» أن الرحلة «تظل إنجازًا أو فعلًا أو مباشرة لما يعنيه أو يقتضيه أمر اختراق حاجز المسافة، أو إسقاط الفاصل الحاجز بين المكان الذي تبدأ منه، والمكان الذي تنتهي إليه»[٥].

أما عن أدب الرحلة، فقد جاء في الشبكة الدولية للمعلومات Internet " إنه النص الذي يحكي فيه المؤلف ما شاهده في بلد آخر"[٦]، وهذا تعريف مجمل في كلماته فضفاض في معناه؛ يخرج بنا إلى أكثر من جنس أدبي واحد، فالقصة والمقامة والتحقيق الصحفي وغيرها من فنون الأدب، قد يحكي فيها المؤلف للمتلقي ما شاهده في بلد آخر. أما إنجيل بطرس فيعرفها بقوله" أدب الرحلات، هو ما يمكن أن يوصف بأدب الرحلة الواقعية، وهي الرحلة التي يقوم بها رحالة إلى بلد من بلدان العالم، ويدون وصفا له، يسجل فيه مشاهداته وانطباعاته بدرجة من الدقة والصدق وجمال الأسلوب والقدرة على التعبير"[٧]، لقد ضيق إنجيل بطرس مفهوم أدب الرحلة بشروطه التي أوردها من واقعية ودقة وصدق... الخ؛ إذ قد يتدخل السارد في هذا الجنس بما

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، مج٣، ج١٨، ص١٦٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص١٦٠٩.

[٣])أحمد بن علي المقري الفيومي: المصباح المنير – دار الكتب العلمية – بيروت -١٣٩٨هـ - ج٢٦٤/١.

(٤) بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، ١٨٨٤، ص٥٦٤.

(٥) صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، ١٩٩٩، ص١١.

[٦]) Rcit de voyage , Relation Reportage : WWW.cafa.umontreal.ca/genres/n-voyage.html نقلا عن محمد الحاتمي: الرحلات المغربية السوسية بين المعرفي والأدبي – مطبعة المعارف الجديدة – الرباط – ط١- ٢٠١٢م – ص٣٠.

[٧])إنجيل بطرس : الرحلات في الأدب الإنجليزي – مجلة الهلال – ع٧ – السنة ٨٣ –يوليو ١٩٧٥م – ص٥٢.

يضفي عليه نكهة التشويق، فالخيال حاضر، والمبالغة أحيانا، وكل وسائل التشكيل الدبي لأجل إنتاج جنس أدبي يحمل جينات الأدب. أما **ناصر الموافي** فيعرفه بأنه: «ذلك النثر الذي يصف رحلة - أو رحلات - واقعية، قام بها رحال متميز، موازنًا بين الذات والموضوع، من خلال مضمون وشكل مرنين، بهدف التواصل مع القارئ والتأثير فيه»[١].

ويمكن القول إذن أن أدب الرحلة في أبسط تعريفاته؛ هو جنس أدبي يجمع بين الواقع والخيال، يثري المتلقي ويسحره من خلال اصطحابه في رحلة وصفية إلى العالم الخارجي، يصبح الواقع هو السارد، والخيال هو المسرود له.

٢ - أهمية أدب الرحلة:

تعد الرحلة حقلًا مهمًّا في التراث الأدبي عند العرب، ولونًا أدبيًّا له مميزاته وخصائصه الفنية، التي تميزه عن غيره من فنون القول الأدبي. واكتسب هذا اللون الأدبي أهميته في أنه قائم على تصوير جوانب الحياة المختلفة، وهو يتقاطع بشكل واضح مع حقول متعددة؛ كالجغرافيا، والتاريخ، والأخبار والسير، وغير ذلك. لذا فإن المطلع على الرحلات يجد فيها إلى جانب المتعة مادة تثقيفية تعليمية، تساهم في إثراء فكره وإنارة بصيرته.

«وتتجلى القيمة الأدبية للرحلات فيما تعرض فيه موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترتقي بها إلى مستوى الخيال الفني»[٢].

إن القيمة الفنية المرجوة من هذا الجنس الأدبي تجعل منه فرعا باذخا من فروع الأدب؛ فهو أدب يدخل في درس الصورولوجية، وينقل لنا عادات وتقاليد الشعوب، في قالب أدبي مشوق يجدل الواقع بالخيال في حبل سردي واحد.

٣- نشأة الرحلة في التراث العربي:

الرحلة متصلة بالتاريخ الإنساني منذ أقدم العصور؛ فلقد عرف العربي السفر ومارس الترحال في شبه الجزيرة العربية منذ الأزل، وقد ذكر لنا القرآن جانبا من هذه الرحلات، أبرزها رحلة الشتاء والصيف؛ فقد كانت قريش ترحل صيفا إلى الشام، وشتاء إلى اليمن، وهي ضرورة تتطلبها دوافع الإنسان وظروف عصره. فقد كانت طبيعة العرب في الجاهلية تستدعي ترحلهم الدائم؛ بحثًا عن الماء والكلأ، أو للتجارة، أو لدوافع فردية؛ كالصيد أو الترويح عن النفس، وما إلى ذلك.

«وقد ظلت الرحلة مكونًا ثقافيًّا لإنسان المنطقة العربية قبل الإسلام وبعده، وتبدَّى تأثيرها في لغته وإبداعه، ومن ذلك حضورها المتكرِّر في القصيدة العربية؛ فالرحلة حاضرة في البنية الأولى من القصيدة عبر عنصر رحلة الظعائن، التي تمثل الهجرة الموسمية للقبائل البدوية، وهي

---

(١) ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء، القاهرة، ط١، ١٩٩٥، ص٤١.

(٢) حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط٢، ١٩٨٣، ص٨.

حاضرة في بنية الرحلة التي يركب الشاعر فيها ناقته ليغادر ساحة الأطلال»[١].

ومن هنا تبرز الرحلة ووصف معاناتها وتفاصيلها في قصائد الجاهليين، حتى أصبحت تقليدًا أساسيًّا في مقدمة قصائدهم.

وعندما ظهر الإسلام في جزيرة العرب كان حاثًّا على الرحلة داعيًا إليها؛ قال تعالى: " قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ "(٢)، وقال – جل ذكره - :" قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ "(٣)، وغيرها كثير من الآيات التي تحث المسلم على السير في الأرض والتفكر في أحوال الأمم والشعوب، فالحركة ديدن الإنسان، والإسلام إلى جانب حثه على ذلك؛ فإنه يدعو أيضًا إلى التأمُّل والتفكر في مخلوقاته، وأخذ العظة والعبرة من الأمم البائدة، وهذا ما ينبغي أن يتوفر في الرحالة المسلم.

كما رحل اللغويون والنحاة إلى البادية، يجمعون اللغة من أفواه البدو، وكذلك رواة الشعر. ومنهم من يرحل إلى مدن بعيدة ليقابل الشيوخ والعلماء في مجالسهم، ويتلقَّى منهم العلم.

وتروي لنا كتب الحديث أيضًا عن كثير من المحدثين الذي قاموا برحلات شاقة؛ لجمع الحديث من صدور الرواة المتفرقين في الأمصار.

ويرى الدكتور **أحمد رمضان أحمد** «أن الرحلة من أهم الوسائل لطلب العلم في أوائل العصر الإسلامي، وذلك لندرة الكتب، وكانت الدراسة العلمية تقوم مقام المراجع والمؤلفات اليوم، وكان رجال العلم ينتقلون من إقليم إلى آخر يدرسون على مشاهير الأساتذة، ويلتقون بأعلام الفقهاء والمحدثين واللغويين، وكذا الأطباء والفلاسفة والرياضيين»[٤].

إن الغرض من الرحلة متعدد، بحيث لا يمكن حصره، بيد أن ارتباط أدب الرحلة كان وثيقا بغرضها من أجل طلب العلم . فأبرز هذه الأسفار كانت رحلات أبي الحسن علي بن الحسين الشهير بالمسعودي(٣٤٦هـ/٩٠٧م)؛ إذ كانت رحلاته علمية من أجل دراسة الجغرافيا والتاريخ، يقول: " ليس من لزم وطنه وقنع بما نمى إليه عن إقليمه كمن قسم عمره على قطع الأقطار، ووزع أيامه على تقاذف الأسفار ... "(٥).

<u>ومن أشهر الرَّحالة العرب:</u>

رحالة القرن الثالث الهجري: محمد بن موسى، سليمان التاجر، اليعقوبي، ابن الفقيه. **رحَّالة القرن الرابع الهجري:** قدامة بن جعفر، المسعودي، المقدسي، المهلبي **رحالة القرن الخامس الهجري:** البيروني، ابن بطلان، أبو عبيد البكري.

رحالة القرن السادس الهجري: الإدريسي، أبو حامد الغرناطي، ابن جبير.

رحالة القرن السابع الهجري: البغدادي، ياقوت الحموي، العبدري.

رحالة القرن الثامن الهجري: ابن بطوطة، ابن خلدون.

---

(١) عمر عبد العزيز، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩، ص٣٥.

٢)سورة العنكبوت – الآية ٢٠

٣)سورة الأنعام –الآية ١١.

(٤) أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، ص١٢.

٥) أبو الحسن بن علي المسعودي: مروج الذهب ومعادن الجوهر –المطبعة العصرية – بيروت – ط١ -٢٠٠٥م – ج١٨٩/١.

رحالة القرن التاسع إلى بداية النهضة العربية: نتيجة لسوء الأحوال السياسية والاجتماعية التي عاشتها الأمة العربية في هذه الفترة ضعفت الحياة الأدبية ومنها الرحلات، بيد أن التاريخ يحفظ لنا أسماء رحالة ظهروا في هذه الفترة، كعبد الغني النابلسي الذي كتب رحلة باسم" الرحلة الحجازية" والطرابلسي والعياشي.

٤ ـ أدب الرحلة حديثًا:

أدى اتصال العالم العربي بالعالم الغربي، وتطوَّر وسائل السفر ـ نظرًا للإمكانيات والتسهيلات التي حدثت في القرن العشرين ـ والتقدم التكنولوجي إلى خلق نمط جديد للكتابة الرحلية؛ فقد وجدنا الكُتَّاب يستعينون في كتاباتهم بالصور والمعلومات والوثائق والإحصائيات، وهي أمور لم تتوفر في كتابات الرحالة القدماء.

وتوجهت رحلات العرب مع بداية النهضة الحديثة إلى أوروبا وإفريقيا والأمريكتين، ونشطت البعثات التعليمية إلى أوروبا بشكل خاص، وكان لهذه البعثات دور كبير في نهضة العالم العربي، من خلال العلوم والمعارف الجديدة التي نقلها الشباب العربي عن العالم الغربي؛ فقاموا بترجمة كثير من علوم أوروبا، وألَّفوا باللغة العربية كتبًا في العلوم والآداب وشتى المجالات؛ فأثروا اللغة بما زودوها من أفكار ومصطلحات حديثة.

وإلى جانب الرحلات التعليمية، كانت هناك الرحلات الاستكشافية؛ فقد ألقى بعض الرحالة بالهم إلى التجوال في بلدان العالم، وعنيت كتبهم بوصف آثار ومناظر البلدان التي مروا بها، ومعرفة الشعوب ومقوماتها الحضارية، واكتساب خبرات جديدة في شتى مجالات الحياة.

ومن النماذج التي اشتهرت في أدب الرحلات في القرن التاسع عشر؛ كتاب «تخليص الإبريز في تلخيص باريز» لرفاعة الطهطاوي، الذي قام برحلته إلى فرنسا كإمام للبعثة التعليمية التي أرسلها محمد علي عام ١٨٧٣، وعرض في كتابه عادات وتقاليد المجتمع الأوروبي، وكيف حقق هذا المجتمع نهضة علمية على جميع المستويات.

«أما عن أشهر رواد أدب الرحلات في العصر الحديث، فنبدأ من الكاتب محمد ثابت وكتابه «جولة في ربوع الشرق الأدنى بين مصر وأفغانستان» عام ١٩٣٤، ورائد أدب الرحلات د. حسين فوزي الذي لقَّب نفسه بالسندباد المصري، وأبرز كتبه: «سندباد عصري»، و«رحلة تاريخية في البحار السبعة»، و«سندباد إلى المغرب»، ولا ننسى الكاتب والروائي جمال الغيطاني الذي أضاف إلى أدب الرحلات بأعماله؛ كـ(كتاب الأسفار: أسفار المشتاق... أسفار الأسفار) عام ١٩٩٢، وكتاب «مدينة الغرباء... مطالع نيويوركية» الذي يصف به رحلته إلى ابنه بمدينة نيويورك»[1].

٥ ـ الرحلة الحجازية:

ـ احتلت الرحلة الحجازية مكانة مهمة في أدب الرحلات، وحظيت بعناية خاصة من الرحالة والعلماء والمؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامي؛ حيث صورت رحلات المسلمين إلى البقاع

---

(١) هدير حسن، مقال: أدب الرحلات يواجه الانقراض، موقع دار الكتب، ١/١٠/ ٢٠١٢.

المقدسة، ووصفت شعائر الحج، كذلك وصفت الحالة الدينية والاجتماعية والاقتصادية لأهل الحجاز.

«وكان الحج عنصرًا مؤثرًا واضح التأثير، وكان للسماع من أئمة وعلماء الحرمين أثره البعيد في اتساع دائرة العلم والأدب. ولقد وصفوا المدينتين المقدستين مكة المكرمة والمدينة المنورة، والطرق الموصلة إليهما، وكذا ما يتعلق بالمشاعر المقدسة المتعلقة بالحج»[١].

وعلى هذا الأساس برزت الرحلات الحجازية، وتنوع إنتاجها بما تحمله من قيمة أدبية ومعرفية، وزخرت المكتبة العربية بالمؤلفات العربية والأجنبية، القديمة والحديثة، التي تناولت الحجاز وتاريخه.

«وبلغت الرحلة الحجازية مبلغًا بعيدًا من التنوع والجودة في القرنين السابع والثامن للهجرية»[٢]؛ فكثرت الرحلات - ولا سيما المغربية والأندلسية - إلى الأماكن المقدسة، وتألق المغاربة في رحلاتهم دون غيرهم، «وكان كثير منهم يفدون إلى مكة لا للحج وحده، ولكن لينشروا العلم ويستزيدوا منه، ويكونوا صلة بين الشرق والغرب بالثقافة والعلم»[٣].

من أهم الرحالة العرب إلى الحجاز كان المسعودي، الذي بدأ رحلته في عام ٣٠١هـ ، فقد رحل إلى بغداد فبلاد فارس وكرمان ، ثم استقر في اصطخر، بعدها بسنة قصد الهند ومنه ارتحل إلى بومباي، ثم سيلان، ومنها إلى الصين فزاز جزيرة مداغسكر وزنجبار، وسواحل أفريقيا والسودان، ثم ارتحل إلى إقليم بحر قزوين فآسيا الصغرى والشام والعراق وبلاد العرب ومصر. وقد جمع خلال هذه الرحلات وتلك الأسفار مادة علمية أدبية هي عصارة ما شاهده في تلك الأمصار.

من نماذج رحلاته على الحجاز، يقول: " واما الحجاز فحاجز بين الشام واليمن والتهائم، هواؤه حرور، وليله بهفور، ينحف الأجسام، ويجفف الدمغة، ويشجع القلوب، ويبسط الهم، ويبعث على الإحن وهو بلد قحط جدب ضنك"([٤]).

كان ابن خلدون – أيضا - من أبرز الرحالة الذين وصفوا الرحلة الحجازية، فقد وصف مكة والمدينة أثناء رحلته لفريضة الحج، يقول عن المدينة: "وأما المدينة وهي المسماة بيثرب فهي من بناء يثرب بن مهلائيل من العمالقة وملكها بنو إسرائيل من أيديهم فيما ملكوه من أرض الحجاز ثم جاورهم بنو قيلة من غسان وغلبوهم عليها وعلى حصونها..."([٥])

([١]) عبد الله الحقيل، رحلة الحج في أدب الرحلات، صحيفة الجزيرة، العدد ١٤٦٥٤، عام ١٤٣٣ هـ.

(٢) إغناطيوس غوتيريث، مقال: أسفار الأندلسيين وتكوين الخصوصية الإسبانية لأدب الرحلة، ارتياد الآفاق، مدريد، ٣/ ٢٠١٠/١١.

(٣) عبد الله الحقيل، مقال: رحلة الحج في عيون الرحالة والمؤرخين، صحيفة الجزيرة، العدد ١٢٨٥٤، ١٤٢٨/١١/٢٨.

[٤])مروج الذهب –ج١/٤٠.

٥)مقدمة ابن خلون –ج١/٣٥٦.

لقد كانت رحلات العرب إلى الحجاز ذات فائدة عظيمة إلى جانب مهارات أصحابها في مجال الإخبار والقص، واعتنائهم الفائق بوصف الأماكن والمباني، وأحوال أهل الحجاز الدينية والاجتماعية والاقتصادية.

المبحث الثاني : إشكالية النوع الأدبي

احتل مفهوم الجنس الأدبي مكانة مهمة في النقد الأدبي، واستأثر باهتمام النقاد والباحثين منذ أقدم العصور؛ حيث تناولت نظرية الأدب منذ نشأتها قضية الأجناس الأدبية، ودارت حولها الكثير من التنظيرات التي تكاد تكون قديمة قدم الأدب نفسه.

ويشير مصطلح الجنس الأدبي إلى «مبدأ تنظيمي لتصنيف الأعمال الأدبية تبعًا لأنماط أدبية خاصة من التنظيم أو البنية الداخليين لهذه الأعمال»[١].

ويشير الدكتور **غنيمي هلال** في كتابه «الأدب المقارن»، إلى أن النقاد منذ القدم قسموا الأدب إلى أجناس أدبية، يقول: «منذ كان نقاد الأدب اليوناني - وعلى رأسهم أفلاطون وأرسطو - لا يزال النقاد في الآداب المختلفة على مر العصور، ينظرون إلى الأدب بوصفه أجناسًا أدبية؛ أي: قوالب عامة فنية، تختلف فيما بينها... على حسب بنيتها الفنية، وما تستلزمه من طابع عام، ومن صور تتعلق بالشخصيات الأدبية، أو بالصياغة التعبيرية الجزئية التي ينبغي ألا تقوم إلا في ظل الوحدة الفنية للجنس الأدبي»[٢].

ويمكن القول إذن أن نظرية الأنواع الأدبية مرت بمرحلتين أساسيتين، هما[٣]:

- المرحلة القديمة التي بلغت ذروتها بالكلاسيكية الجديدة، والتي دعت إلى فصل الأنواع الأدبية بعضها عن بعض؛ إذ ينكفئ كل نوع ضمن أسوار مغلقة لا يتراسل فنيًّا مع غيره، وهذا هو المذهب الشهير بنقاء النوع.

أما المرحلة الثانية فقد ظهرت حديثًا، وهي وصفية بكل وضوح، تدعو إلى المزج بين الأنواع التقليدية وإنتاج نوع جديد، ولا توصي الكتاب بقواعد معينة، حيث تميزت هذه المرحلة بالكتابات الحديثة التي تعطي انفتاحًا للنوع الأدبي، كي لا يبقى منغلقًا على نفسه.

ولعل هذه المقدمة لنظرية الأجناس الأدبية وتطورها، تجعلنا نتوقف عند ماهية الرحلة، وكيف تشكلت؟ وكيف تتخذ موقعها بين الأنواع الأدبية الأخرى؟

« فالرحلة جنس أدبيّ قائم الذات، له مميزاته وخصائصه واستقلاله الذي يمنعنا من إدخالها ضمن الجغرافيا أو الأدب الجغرافي، أو ضمن التاريخ، أو ضمن الإثنوغرافيا، أو ضمن الفن القصصي؛ بيد أنه لا ينبغي أن يفهم من هذا الكلام القول بخلو كتب الرحلات من كل هذه المعارف، لكن وجود بعض المعلومات التاريخية لا يجعلها مؤلفًا في التاريخ، ولا وجود بعض الإفادات الجغرافية يجعلها كتابًا في الجغرافية، وهلم جرًّا.

أما عن تشكيلها فقد صرح **تودوروف** بأن «مشكل الأجناس هو واحد من أقدم مشاكل الشعرية، وقد طرح منذ أقدم العصور إلى يومنا هذا...، فتعريف الأجناس، وعددها، والعلاقات

---

(١) عبد النبي اصطيف، مقال: نظرية الأجناس الأدبية، الموسوعة العربية.

(٢) محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط١، ١٩٩٠، ص١٣٦.

(٣) ورقاء يحيى قاسم، مقال: النص الأدبي وإشكالية التجنيس، موقع الشاعرة بشرى البستاني.

المتبادلة بينها؛ لم يتوقف النقاش حولها قط»[١].

وسوف نتعرف على ماهية الرحلة الحجازية بين السيرة الذاتية والسرد الروائي، وبين الواقع والخيال، واللغة العادية والانزياح.

١- الرحلة الحجازية بين السيرة الذاتية والسرد:

فرضت الرحلة نفسها كخطاب أدبي يمتاز بتعدد أوجهه وأشكاله؛ فسرعان ما تشكلت ملامحه، واستقل بجنسه عن فروع الأدب الأخرى، فاحتوت مضامينه على ثمار التاريخ والجغرافيا ووصف الأمم والشعوب عاداتها وتقاليدها، وتوشح بنمط سردي قصصي قائم على الوصف والرسائل والأشعار، وتحضر هذه الملامح متفاوتة في النص الرحلي، وتساهم - بلا شك - في بناء دلالاته وأبعاده الفنية.

وتبدو الرحلة بهذا الشكل صورة متعددة الأبعاد، وخطابًا مركبًا من عدة عناصر، وهذا ما دفع الكثير من الباحثين إلى القول بأنها جنس أدبي متكامل يحطم صفاء النوع الذي نادى به النقاد القدماء.

«وينفتح النص الرحلي ضمن دائرة متعددة المنافذ على أشكال أدبية وغير أدبية، ويتفاعل معها ممتصًّا جوهرها؛ لاستثماره في تعزيز نصيته سواء في شكل متخللات أو مكونات»[٢].

ويحضر السرد القصصي مكونًا رئيسيًّا في البناء الفني للرحلة، ويشكل العمود الفقري لهذا النوع الأدبي؛ فالرحلة حكاية تتكون من سارد، ومسرود، ومسرود له، والسرد يبدأ مع الرحلة ويستمر إلى نهايتها. ويأتي إما بأسلوب تقريري ولغة مباشرة، وإما بأسلوب أدبي رفيع عبر استعمال بعض المحسنات البلاغية، أو عن طريق المزج بينهما، ومن هنا تتباين مستويات السرد وأشكال الكتابة في الرحلة.

كما تتداخل السيرة الذاتية مع السرد كمكون رئيسي للخطاب الرحلي، ولا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن الرحلة تلعب دورًا واضحًا في بناء معالم الذات، حيث تقدم للرحالة رؤيته الداخلية التي تتيح له التكلم عن «أناه».

ويرى الدكتور **سعيد جبار** «أن تطابق المؤلف والسارد والشخصية تمنح الرحلة مميزات تجعلها قريبة من السيرة الذاتية دون أن يجرؤ أحد على وضعها في هذه الخانة، والتواريخ الدقيقة التي تصاحب الأحداث والوقائع في غالبها تحيل إلى طبيعة المذكرات أو اليوميات.

غير أن ارتباطها بالسفر ومتابعة وقائع الرحلة منَحَت الرحلة ملامح خاصة على مستوى تجلياتها الخطابية، وكانت نصًّا مرنًا مفتوحًا يستوعب كل ما يدور في ذاكرة السارد»[٣].

---

(١) محمد حاتمي، مقال: في الخطاب الرحلي، مجلة فكر ونقد، العدد ٨٧.

(٢) شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رواية للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٦، ط١، ص ٥٦.

(٣) سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية: بحث في الأنساق الدلالية في السرد العربي، منشورات

ومن هنا يتمثل هذا الامتزاج بين السيرة الذاتية والسرد في بنية النص الرحلي وجوهره، حيث يهيمن على المتن الحكائي للرحلة السرد بضمير المتكلم. «فالرحالة هو المؤلف نفسه، وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة وتقوم بتلفيظ تلك الرحلة. وهذه الذات في انتقالها عبر الأماكن لا تنفصل عن ثقافتها ومعتقداتها ورؤيتها للعالم»[١]. ونستدل على ذلك بهذا النموذج لرحلة **بيرتون**[٢] إلى مصر والحجاز؛ يقول: «لقد حاق الضرر بقدمي بسبب حرارة الشمس، والرطوبة العالية، وابتلالها تباعًا بمياه البحر؛ لدرجة أني عندما وصلت إلى ينبع لم أكن بمستطيع - إلا بالكاد - أن أضعها على الأرض، إلا أن واجب الرحالة هو أن يتجول ويرى، ولذا فقد اتكأت على كتف عبدي. وشرعت ذات مرة في رؤية ينبع بينما اتخذ آخرون من رفاقنا سبيلهم إلى الجمارك»[٣].

٢- الرحلة الحجازية بين الواقع والخيال:

برزت الرحلة كنوع أدبي يشتمل على ضرب معين من المصنفات التاريخية والجغرافية، وهذا ما جعلها تقترب من الأعمال غير الخيالية لا سيما أنها مقترنة بشكل كبير مع السيرة الذاتية والتي تتضاءل فيها مساحة الخيال إلى حد كبير، غير أن كتب الرحلات يكون العنصر الروائي فيها السمة الفنية والأدبية الأبرز.

ضفاف - دار الأمان، ط١، ٢٠١٣، ص ١٧٣.

(١) محمد حاتمي، مقال: في الخطاب الرحلي، مجلة فكر ونقد، العدد ٨٧.

(٢١) ريتشارد بيرتون: رحالة ايرلندي، ولد سنة ١٨٢١، وهو دبلوماسي عالم. طبقت شهرته الآفاق، ترك خلفه ٤٠ مجلدًا عن رحلاته واستكشافاته في العالم، بالإضافة إلى ٣٠ مجلدًا لترجمات كتب شهيرة، منها ترجمته كتاب ألف ليلة وليلة في عشرة أجزاء. قام بعدة رحلات، أهمها رحلته إلى مصر والديار المقدسة، ونشر هذه الرحلة بعنوان «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز»، وقام الدكتور عبد الله الشيخ بترجمة هذا الكتاب إلى العربية. عدنان اليافي، المدينة المنورة في أعين رحالة غربيين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ٢٠١٢م.

(٢) ريتشارد بيرتون: رحالة ايرلندي، ولد سنة ١٨٢١، وهو دبلوماسي عالم. طبقت شهرته الآفاق، ترك خلفه ٤٠ مجلدًا عن رحلاته واستكشافاته في العالم، بالإضافة إلى ٣٠ مجلدًا لترجمات كتب شهيرة، منها ترجمته كتاب ألف ليلة وليلة في عشرة أجزاء. قام بعدة رحلات، أهمها رحلته إلى مصر والديار المقدسة، ونشر هذه الرحلة بعنوان «رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز»، وقام الدكتور عبد الله الشيخ بترجمة هذا الكتاب إلى العربية. انظر: عدنان الموافي، المدينة المنورة في أعين رحالة غربيين.

(٣) محمد بن حسن الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة، ج٢، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط١، ٢٠٠٠ ص ٤٠٧.

ولا شك أن الخطاب الأدبي بشكل عام قائم على التخييل، وعلى قدرة الكاتب أو الشاعر في جعل الغريب يبدو مألوفًا، والمألوف يبدو غريبًا؛ «فأدب الرحلة يتطلب من الرحالة الأديب قدرًا كبيرًا من القدرة على توظيف خياله في صياغة المشاهد، صياغة لا تبتعد عن الواقع أو تزيفه! بقدر ما تمنحه شحنات خيالية ذاتية»[١].

ونجد غالبًا في إنتاج النص الأدبي اعتماد الكاتب على المزج الدقيق بين الواقع والخيال؛ فيصوِّر الأحداث الخيالية وكأنها حدثت في الواقع أو العكس، فنجد مثلًا في القصص والروايات أحداثًا خيالية من نسج الكاتب يضمنها عناصر أدبية؛ كالحوار، ووصف المكان والزمان، وتصبح صورة مجسِّدة للواقع في مخيلة القارئ.

وتأتي أهمية الخيال - كما يرى **طوني موريسون** - من خلال «إنتاجه عملًا قابلًا لتعدد القراءات، في الحاضر والمستقبل، وذو لغة مرنة لا نهائية، وعلى هذا النحو يسعى القراء والكتاب معًا لإنجاز عوالم متخيلة مشتركة»[٢].

ولا شك أن الرحلة كنصٍّ أدبي تحمل في ثناياها تنويعًا في التجليات السردية، والتي يتفاعل فيها الواقعي بالمتخيل، واللغة العادية بالانزياح، وذلك بنمط سردي معين يختلف من مؤلف لآخر. فالسارد الرحالة يحرص على واقعية أحداثه وصدقها، وهو يستحضرها في بنائه السردي، سواء كانت هذه الأحداث متعلقة بذاته أو ما شهده وسمعه من الآخرين أثناء سفره.

ولا نعدو الصواب إذا قلنا: إن الرحلة بواقعيتها وقربها من السيرة الذاتية أو الوثيقة التاريخية الجغرافية؛ فإنها في الغالب تلتزم الحقيقة المجردة، فهي تعتمد على تصوير وقائع الناس وأحوالهم إلى جانب وصفها للمدن والقرى والدروب والمسالك. إلا أن كاتب الرحلة يسمح بإطلاق خياله لإضافة نوع من التشويق إلى متنه الحكائي، فقد يلجأ أحيانًا إلى التعديل والتغيير والمبالغة في تضخيم الحدث، أو وصف الأشياء بما ليست عليها. فالرحالة - كما يرى شوقي ضيف - «يكتب الرحلة بمخيلة القصاص الذي يسند الواقع بالخيال والحقيقة بالأسطورة»[٣].

ويشير الباحث **سعيد جبار** إلى أنه «يصعب الحديث عن التجاور بين الحدث التخييلي والحدث الواقعي، والذي يضمن لكل واحد خصائصه إلى جانب الآخر ويميزه عنه؛ كما يصعب الحديث عن المفارقة بين الواقع والتخييل بمعناها العام، فالمؤلف لا يقدم حدثًا يكسر منطق الواقع من أجل منطق جديد، بل ما يقدمه متجذر في الواقع. وعلى هذا الأساس فإن العلاقة التي تربط الواقع بالمتخيل في النصوص الرحلية هي علاقة تماهٍ وتداخل، يصعب معها فصل الواحد منهما عن

---

(١) عبد الله آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير: جامعة أم القرى، مكة، ١٩٩٧، ص ١٢٩.

(٢) طوني موريسون، صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، المغرب، ط١، ٢٠٠٦، ص ٣٢.

(٣) شوقي ضيف، أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤. ص٦.

الآخر»[١].

فالحدث التخييلي هو أساسًا حدثٌ واقعي حدَثَ مع الرحالة، ولكنه ينقله إلينا بصورة تخييلية تعاكس الواقع، وتشحذ ذهن المتلقي تفاعلًا مع الموقف، حتى يصبح الواقع ضربًا من ضروب الخيال.

٣- الرحلة الحجازية بين اللغة العادية والانزياح:

اللغة هي أداة تشكيل النص الأدبي، وهي أداة الرحالة في رسم رحلاته، يطوعها كيف شاء، بيد أن هناك خيوط تتداخل معها لاستكمال الصورة، كالبناء الزمكاني والوصف، والأحداث؛ فهي المادة التعبيرية الإبداعية التي يرسلها المبدع للمتلقي، والتي تحمل أفكاره ونواياه إلى جانب مضامين النص وأبعاده المرجعية.

«كما أن العلاقة بين النص ومتلقيه تعتمد على قاسم مشترك هو اللغة، وتصل إلى هدف واحد هو إنتاج المعنى الأدبي، وتتوسل بأساليب مشتركة من حيث الطرق الموصلة إلى المقاصد النهائية»[٢].

وتشتغل اللغة في الخطاب الرحلي بحسب ما يستدعيه الكاتب من تعابير تقريرية، أو أساليب رمزية وانزياحية، أو على شكل مستنسخات تناصية. كاستدعاء الشعر في المتن الحكائي للرحلة، أو تضمين بعض الآيات القرآنية والأحاديث النبوية بحسب ما يستدعيه النص.

وعلى هذا الأساس تميزت لغة الرحلات بالتنوع والشمولية؛ فهي لا تلتزم بحدود معينة داخل النص، ولا تحدُّ من قدرة الكاتب في توظيف أدواته الفنية ومخزونه المعرفي كيفما شاء.

وهذا الغنى الفني للرحلة وتعدد مضامينها منحها بعدًا جماليًّا واضحًا، إلى جانب تميُّز لغتها بالسلاسة والبساطة والبعد عن التصنع والتكلُّف، مما قربها من جمهور القراء الذي وجد متعته في هذا النوع الأدبي.

كما تنبغي الإشارة إلى أن كتابات الرحالة القدماء تميزت في مقدماتها بالتزين والتأنق بالحلى الأسلوبية التي عرفتها عصورها؛ فالرحالة ابن جبير زين مقدمته بالمحسنات البديعية - كالسجع - في وصف المدن التي أعجب بها. فكانت المقدمات تحفل بهذه المحسنات البديعية، أما باقي الرحلة فقد كتبت بلغة بسيطة تميل إلى العذوبة والجمال.

---

(١) سعيد جبار، من السردية إلى التخييلية - بحث في الأنساق الدلالية في السرد العربي، ص ١٠٤، ١٠٥.

(٢) محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩، ص٣٨.

كما أن استخدام اللغة بحسب ما يراه الأسلوبيِّين ينقسم إلى قسمين [١]:

- المستوى الأول هو مستوى اللغة المثالي في الأداء العادي الاستعمال المعجمي، أو ما يسمى لغة الحياة اليومية.
- والمستوى الثاني هو مستواها الإبداعي، «الذي يعتمد على اختراق هذه المثالية وانتهاكها، من خلال شحن اللغة بطاقات أسلوبية جمالية، تحدث تأثيرًا خاصًّا في المتلقي»[٢].

وتلك المستويات من اللغة هي التي تفرق بين الكلام البليغ والكلام العادي. ولهذا اعتبر **جاكبسون** الأدب هو الأدب بما يتوفر فيه من خصائص تجعله أدبًا، وهو ما يسميه أدبية الأدب، أي: ما يجعل الأثر أثرًا أدبيًّا. إذن الكلام البليغ هو الذي يميز اللغة الأدبية عن اللغة العادية، يسمى انزياحًا؛ أي: الخروج عن أصول اللغة، وإعطاء الكلمات أبعادًا دلالية غير متوقعة.

المبحث الثالث : تعددية الخطاب في الرحلة

إن الخطاب في التعريف البلاغي العام هو «مجموعة من الجمل منطوقة كانت أو مكتوبة، في حالة اشتغال أفقي – أي: نمط أو تركيب - على موضوع محدد. ويسعى التلفظ به إلى التأثير في المتلقي بواسطة فرضيات ورؤًى وأحاسيس، مما يتطلب مبدئيًّا ديمومة في إنتاجه وتلقِّيه، وتماسكًا داخليًّا، وتدليلًا مقنعًا، وصورًا تعبيرية، ولغة واضحة»[٣].

والخطاب بصورة عامة يعمد إلى توظيف اللغة، ومشاركة المعنى مع المتلقي، فهو يقوم على الإيصال بين طرفين: أحدهما المرسل. وثانيهما متلقي النص.

«فيتجه المتكلم إلى اللغة ليتزوَّد منها بالعناصر والضوابط التي تنتج النص اللغوي، ومن هنا تتجلَّى ذاتية المتكلم - التي هي مرجع إنتاج الخطاب - في تلك التشكيلات اللغوية التي أفرزها اشتغاله على اللغة»[٤].

ويشكِّل الخطاب أحد الركائز المهمة في النص الرحلي، ويعمل على تشكيل أبعاده ومضامينه المختلفة، سواء أكانت هذه المضامين أدبية، أو غير أدبية.

---

(١) انظر: عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب، الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط٣. ص١٠٣.

(٢) هدية جيلي، ظاهرة الانزياح في سورة النمل، رسالة ماجستير - جامعة منتوري، الجزائر، ٢٠٠٦، ص٣.

(٣) رشيد بنحدو، النص الأدبي من الإنتاج إلى التلقي، أطروحة مقرونة بكلية الآداب بفاس، إشراف حسن المنيعي، ١٩٩١، ص ٢٤٩.

(٤) إبراهيم أنيس الكاسح، مقال الخطاب الديني واستثمار ممكنات النص الإبداعي، شبكة الألوكة، ٢٠١٣/٩/٢٤.

١-الخطاب التاريخي الاجتماعي:

أنشأ أدب الرحلة الحجازية خطابًا خاصًّا يعد موروثًا تاريخيًّا واجتماعيًّا لصورة الحجاز في الماضي والحاضر، ونقل لنا الرحالة صورًا صادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية التي مروا بها، وعادات أهلها وتقاليدهم، إضافة إلى اهتمامهم بالأحوال السياسية، والأحداث التاريخية الكبرى.

ويتأسس أدب الرحلات على القص والإخبار، وتقوم نسقية الرحلة على التسلسل الزمني الرابط بين بدايتها ونهايتها. ولذا فإن السرد الرحلي «يقوم على تجاور الأخبار المتسلسلة زمنيًّا والمرتبطة بالانتقال عبر فضاءات مختلفة، فكل فضاء يرتاده الرحالة يكون بمثابة إطار معرفي يزود الرحالة بمعلومات ومعارف وأخبار يحتفظ بها، ويستحضرها لاحقًا وهو يسرد الرحلة»[١].

ولهذا تنوعت خطابات الرحالة وأوصافهم حول الأحوال التاريخية والاجتماعية للمدينتين المقدستين وما جاورهما، إضافة إلى سعيهم لإدراك كل ما يحيط بهم، وكل ما تقع أعينهم عليه، ولهذا جاءت أوصافهم متنوعة سواء في المضامين أو التراكيب اللغوية.

وتأتي أوصاف الرحالة - غالبًا - ممزوجة برأيه؛ فهو لا يكتفي بالنقل المباشر، بل يسجل رؤيته الحضارية للمكان الذي يأتي فيه، إضافة إلى نقده المجتمع والناس.

وخير دليل على ذلك ما أورده **ابن جبير** في وصفه لأهل «عيذاب»، التي قضى فيها ثلاثة وعشرين يومًا.

يقول: «وأهلها الساكنون بها من قبيل السودان يعرفون بالبجاة، ولهم سلطان من أنفسهم يسكن معهم في الجبال المتصلة بها. وهذه الفرقة أضل من الأنعام سبيلًا وأقل عقولًا، لا دين لهم سوى كلمة التوحيد التي ينطقون بها إظهارًا للإسلام، ووراء ذلك من مذاهبهم الفاسدة وسيرهم ما لا يُرضى ولا يحل، ورجالهم ونساؤهم يتصرفون عراة إلا خرقًا يسترون بها عوراتهم، وأكثرهم لا يسترون. وبالجملة فهم أمة لا أخلاق لهم»[٢].

وبرز هذا البعد الاجتماعي في وصف الناس وأحوالهم لدى **ابن جبير** وغيره من الرحالة القدماء، فكانت معايير النقد لديهم اجتماعية ودينية وأخلاقية. بينما اتسمت مدونات الرحالة المحدثين بالمعايير الجمالية والفنية والسردية؛ فجاءت رحلاتهم ذات بنية سردية متكاملة، وتضمنت عناصر مختلفة منحت هذا اللون الأدبي بعدًا جماليًّا.

وسلك معظم الرحالة المنحى التفصيلي للأماكن التي يمرون بها، وإبراز المفارقات بين الشعوب؛ نظرًا لتنوع البيئات، التي تؤثر بشكل أو بآخر في طبيعة الإنسان؛ «فهناك أمكنة مختلفة وأنماط من الفضاءات المتعددة، يرتبط بها تلقائيًّا أنماط من السكان، يكتسبون مع الزمان سمات ترتبط بأمكنتهم، والإنسان - كما تقول الدراسات الإنثروبولوجية المختلفة - هو ابن المكان ذهنيًّا

---

(١) سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية، ص ١٨١.

(٢) محمد بن حسن الشريف، المختار من الرحلات الحجازية، ج١، ص٤٠.

ونفسيًّا، وهو قابل للتأثر بالمناخ والطبيعة»[١].

٢- الخطاب الجغرافي المكاني:

ارتبطت الرحلة منذ نشأتها بالجغرافيا، وكانت الملامح الجغرافية من الأسس المهمة التي قام عليها أدب الرحلات، فتعددت مسميات هذا اللون الأدبي؛ نظرًا للخطابات المتعددة التي وردت فيه، مما جعله نصًّا مفتوحًا على علوم متنوعة، وأنساق جمالية وإنسانية جديدة، توفر مادة أدبية وعلمية للقارئ في آن واحد.

وظهر ارتباط الرحلة بالجغرافيا من خلال عدة مسميات، سواء في المضمون أو طريقة التدوين، منها: الجغرافيا الوصفية، والأدب الجغرافي، وأدب الرحلات. «فإذا اختفت العناصر الأدبية والذاتية - أو ندرت - صنف النص على أنه جغرافيا وصفية، وإذا حاول الرحال أن يوازن بين الموضوع والذات؛ فإن عمله يصنَّف على أنه أدب جغرافي، أما إذا طغت العناصر الأدبية الذاتية؛ فإن عمله يصنف على أنه أدب الرحلة»[٢].

ويرى الدكتور **شوقي ضيف** في معرض حديثه عن الجغرافيين العرب؛ أن «كتبهم الجغرافية أصبحت كتبًا أدبية، تعتمد على المشاهدة، وحكاية ما رآه الجغرافي تحت عينه، وسمعه بأذنه، وهي من هذه الناحية أقرب إلى أن تكون كتب رحلات منها إلى أن تكون كتبًا جغرافيَّة بالمعنى الذي نفهمه اليوم»[٣].

ويمكن القول أن ارتباط الرحلة بالجغرافيا نشأ من خلال الطابع المزدوج بين الأسلوب القصصي والأسلوب العلمي الذي يجمع بين الرحلة والجغرافيا، ولا يمكن الجزم بخلو كتب الرحلات من الأسلوب العلمي الصرف الذي يرد في ثناياها، لا سيما في وصف المناخ والبيئة الجغرافية للمكان المرتحل إليه.

وقد أوضح **كراتشكوفسكي** في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافي» إدراك العرب للطابع المزدوج لتلك المسميات، فقد بيَّنوه بدقة في تصنيفهم للعلوم. إذ يقول: «يمكن بوجه عام تمييز اتجاهين أساسيين في الأدب الجغرافي العربي؛ فهو من ناحية يولي وجهه شطر العلوم - أعني: العلوم الدقيقة، وذلك بالمعنى الذي نفهمه حاليًا إذا ما أردنا تحديد علم الجغرافيا -، ومن ناحية أخرى فهو يولي وجهه شطر الأدب الفني بالغًا ببعض آثاره في هذا المجال ذروة الإبداع»[٤].

والذي يهمنا الآن هو التعرف على أبعاد هذا الخطاب الجغرافي في أدب الرحلات؛ فقد جاء متميزًا في الصياغة والبناء، وطرائقه الوصفية الخاصة، التي عبرت عن مشاهدات وأحداث

---

(١) عبد الحميد المحادين، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١، ص٢٢١.

(٢) ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، مرجع سابق ، ص٢١.

(٣) شوقي ضيف، الرحلات، ص١٢.

(٤) إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣، ص ١٨.

حقيقية، ونقل لنا الرحالة عبر المعاينة المرئية كل ما تقع أعينهم عليه، كما ساهموا في وصف أحوال البلدان وتضاريسها ومعالمها، ولهذا جاءت أوصافهم دقيقة ومعبرة.

الخطاب الديني الفكري:

الخطاب الديني يحظى بأهمية كبرى؛ نظرًا للغاية السامية التي ترنو لها نفوس الرحالة، وهي أداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة الأماكن المقدسة.

وحظي الخطاب الديني بحضور مكثف في كتب الرحلات الحجازية، بدءًا من العناوين التي تضمنت هذا الحس الديني، مثل: «في منزل الوحي» لمحمد حسين هيكل، و«الارتسامات اللطاف في خاطر الحاج إلى أقدس مطاف» لشكيب أرسلان، و«مرآة الحرمين» لرفعت إبراهيم باشا، و«أرض النبوة» لعلي الطنطاوي... وغيرها.

والعنوان هو العتبة الأولى في البناء النصي، التي يلج من خلالها المتلقي إلى النص؛ فهو «يمثل ملفوظ ما قبل الحكي الأول، وما بعد الحكي الآخر، كونه علامة سيميائية تنفتح على دلالات شتى، وإيحاءات متعددة»[١].

وجاءت مضامين الرحلة الحجازية دالة على تلك العناوين بما تحمله من معانٍ دينية واضحة؛ فاصطبغت الرحلة بذاك الطابع الديني الذي ظهر أثره واضحًا في مدونات الرحالة، بما يحمله من مشاعر جياشة تسبق وصولهم إلى الأماكن المقدسة.

ولذا كان الخطاب الديني محط أنظارهم الأول في كل بقعة يرتحلون إليها، فقد سعوا إلى توظيف هذا الخطاب الذي يعكس طبيعة البيئة الثقافية والدينية التي تنتمي لها الرحلة الحجازية.

المبحث الرابع بنية السرد

يشتمل مصطلح السرد على قص حدث أو أحداث، أو خبر أو أخبار، سواء أكان ذلك من صميم الحقيقة أم من ابتكار الخيال[٢].

والأصل في اشتقاق مصطلح السرد هو الفعل بمعنى يسرد؛ أي: يحكي ويقص، وارتبط المصطلح بأسلوب الكلام الشفهي، ورواية الأخبار والتعليق على الأحداث، «وترتبط أصوله بالقصص والأساطير الخرافية التي تدور حول البطولة، وكانت تعني تفسير ترابط الأحداث على وفق علاقات التسبيب والتسلسل المنطقي للأحداث في القصة»[٣].

---

(١) مفيدة بنوناس، تمظهر الخطاب الديني في الرواية المغاربية المعاصرة، مجلة الأثر، العدد ١٣، مارس ٢٠١٢، ص ٢٥٩.

(٢) مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص ١٩٨.

(٣) أحمد رحيم الخفاجي، المصطلح السردي في النقد الأدبي الحديث، دار الصادق الثقافية، عمان، ط١، ٢٠١٢، ص٣٠.

وفيما يلي عرض لأبرز المكونات السردية داخل النص الرحلي. السارد.- المسرود.- المسرود له

١- السارد

لا يمكن الحديث عن الرحلة دون التطرق للحديث عن السارد، فقد أجمعت الدراسات على انتظام الخطاب السردي على أركان أساسية ثلاثة، هي: الراوي، والمروي، والمروي له.

ويشير أحد الباحثين إلى أهمية موقع السارد في البنية السردية؛ إذ يقول: «إن موقع السارد أهم موقع في الرواية كلها؛ فهو يمنح اللغة دلالاتها، ويحدد الزوايا القولية التي ترصد بها الأحداث، ويمكن من خلاله التحكم في هذا الركام الهائل من الأفعال، والأقوال، والرؤى، والأصوات، واللهجات، والأساليب المتباينة، وإخضاعها جميعًا للتعايش معًا في شكل فني واحد»[١].

وعلى هذا الأساس تبرز أهمية السارد في تقديمه للخطاب السردي بصورة فاعلة ومؤثرة، وجذبه للقارئ عبر استراتيجيات من التشويق التي تخلق جو الانسجام داخل النص السردي.

وتبرز أهمية السارد في الرحلة من خلال حضوره الفاعل كشخصية مركزية ومهيمنة تقوم بفعل الرحلة، كما تقوم بسرد تلك الرحلة، ولهذا تحضر الذات باستمرار داخل النص السردي من خلال نقل الوقائع والأحداث المرتبطة بالرحالة، والتي تندمج مع سيرته الذاتية، وتعبر عن انفعالاته وأحاسيسه وميولاته ومرجعياته الثقافية.

والرحالة يواكب الأحداث، ويتأمل المكان والشخصيات التي يلقاها في رحلته؛ فيستنتج حالة أو ظاهرة يدونها وتصبح جزءًا من البناء الحكائي لرحلته. كما يستخدم ضمير المتكلم الذي يواكب فعل الرحلة بدءًا من تحديد مكان الخروج، ووسيلة السفر، ومحطات الانتقال والتوقف... إلخ.

ويلجأ كذلك إلى السرد بضمير الجمع للدلالة على الأشخاص المرافقين معه في رحلته؛ «فيحقق نوعًا من الارتباط بالجنس الرحلي وبالأحداث وبذاته كراوٍ مؤلف ورحالة؛ فتصير الظروف الاجتماعية للرحالة وحركاته العملية وجذوره الجغرافية ذات تأثير ملموس على خطابه»[٢].

٢- المسرود:

كل رحلة تقوم على بنية حكائية تسرد تفاصيل السفر، وتسجل الأحداث المرتبطة بالزمن الذي تستغرقه الرحلة؛ فهي ذات بنية نمطية تجسد مراحل الانتقال عبر الفضاءات المختلفة، من حيث الوصول إلى الهدف ثم العودة إلى نقطة الانطلاق.

---

(١) عبد الرحيم الكردي، السرد العربي في الرواية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله نموذجًا)، منشورات جامعة الطائف، ٢٠٠٣، ص١٤١.

(٢) شعيب حليفي، الرحلات العربية: النص وخطاب الهوية، ندوة الخرطوم ٢٠٠٥.

ولذا نجد الرحلة شكلت في مساراتها المختلفة بين البداية والنهاية معمارًا خاصًّا، «فعلى المستوى الزمني التزم السارد – الرحالة - في تخطيب رحلته خطية زمنية دقيقة ارتبطت بالمؤشرات الزمنية المرجعية المضبوطة التي تؤشر على اليوم والشهر والسنة، وهي مؤشرات تسمح للقارئ بتأطير الرحلة في مسارها العام في كل الفضاءات التي مرت بها»[١].

وترتكز بنية الرحلة على الشكل والمضمون، ولذا فهي تحتوي على نظام خارجي يتمثل في المقدمة وفصول الرحلة وأبوابها، ونظام داخلي يحتوي على إطار يجمع مستويات خطابية متنوعة ومتداخلة فيما بينها.

٣- المسرود له:

لقي مصطلح المسرود له عناية كبيرة من النقاد المحدثين، وتعددت مسمياته؛ كالمروي له، أو المسرود له، أو المتلقي. والمقصود به «السامع أو القارئ الذي توجه إليه القصة، وهو ليس مجرد فرد تقص عليه القصة؛ إذ ينبغي أن يتضمن النص ما يشير إلى أن القصة موجهة فعلًا إلى «جمهور» أو قارئ معين»[٢].

وهو أحد المكونات الرئيسية للبنية السردية، والطرف المقابل للسارد؛ فنجد غالبًا «حرص الرواة على أن يكون سردهم دائمًا استجابة وتلبية لدعوة صادرة عن المسرود له، إن لم نقل: إنه يتأسس عليه في بعض الأحيان»[٣].

وللمسرود له أهمية كبرى في العملية السردية، فمن خلاله يتم فهم النص وتأويله. وتلقي النص هو «الفعل الذي يمارسه القارئ حالما تقع عيناه على نص، ساعيًا إلى إدراكه ووضعه في إطاره الزمني والمكاني، وإلى تحقيقه بما تيسَّر له من ثقافة...، فالنص بقدر ما يمضي من وظيفته التعليمية إلى وظيفته الجمالية؛ فإنه يترك للقارئ المبادرة التأويلية»[٤].

وقد عرفه جيرالد برنس بأنه «الشخص الذي يسرد له، والمتموضع أو المنطبع (inscribed) في السرد، وهناك على الأقل مسرود له لكل سرد يقع في مستوى الحكي للسارد نفسه، الذي يوجه له الكلام أو لها»[٥].

---

(١) سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية: بحث في بعض الأنساق الدلالية في السرد العربي، ص ١٧٧.

(٢) أحمد الخفاجي، المصطلح السردي في النقد الأدبي العربي الحديث، ص ٢٢٢.

(٣) يوري م. لوتمان، بنية النص السردي، ترجمة: عبد النبي اصطيف، فصول «مجلة النقد الأدبي»، زمن الرواية (الجزء الأول)، ١٩٩٣، ص٦٩.

(٤) أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٦، ص ٦١، ٦٣.

(٥) جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣، ص ١٤٢.

كما ميز بين المسرود لـه والقـارئ الحقيقـي، بـأن «المسـرود لـه بنـاء سـردي محـض يجـب ألا يخلـط مـع المتلقـي أو القـارئ الحقيقـي؛ ففـي النهايـة فـإن القـارئ الحقيقـي يمكـن أن يقـرأ العديـد مـن السرديات، كل منها له مسرود له مختلف»[1].

ومن هنا يمكن القول أن المسرود له جزء من الخطاب السردي؛ فهو يتموضـع داخـل الـنص، وقد يشير إليه السارد صراحة أو ضمنيًّا؛ فنجد السارد يومئ إليـه فـي عـدد مـن المقـاطع السـردية، فتأتي بعض الجمل دالة عليه.

(1) المرجع السابق، ص ١٤٣.

الخاتمة

وقد توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها:

- أن أدب الرحلة هو نوع من الأدب الذي يصوِّر فيه الكاتب ما جرى له من أحداث، وما صادفه من أمور في أثناء رحلة قام بها إلى أحد البلدان .
- تعد الرحلة حقلًا مهمًّا في التراث الأدبي عند العرب، ولونًا أدبيًّا له مميزاته وخصائصه الفنية، التي تميزه عن غيره من فنون القول الأدبي. واكتسب هذا اللون الأدبي أهميته في أنه قائم على تصوير جوانب الحياة المختلفة .
- الرحلة متصلة بالتاريخ الإنساني منذ أقدم العصور، وهي ضرورة تتطلبها دوافع الإنسان وظروف عصره. فقد كانت طبيعة العرب في الجاهلية تستدعي ترحلهم الدائم؛ بحثًا عن الماء والكلأ، أو للتجارة، أو لدوافع فردية؛ كالصيد أو الترويح عن النفس، وما إلى ذلك.
- أدب الرحلة في العصر الحديث؛ فقد أصبح شكلًا فنيًّا داخلًا في الأدب، واتخذ طابعًا جديدًا، حيث اتصل العالم العربي بالعالم الغربي.
- احتلت الرحلة الحجازية مكانة مهمة في أدب الرحلات، وحظيت بعناية خاصة من الرحالة والعلماء والمؤرخين عبر مراحل التاريخ الإسلامي .
- فرضت الرحلة نفسها كخطاب أدبي يمتاز بتعدد أوجهه وأشكاله، فعلى مستوى المضامين يحتوي هذا الجنس الأدبي على معارف متنوعة؛ تاريخية وجغرافية وأدبية ودينية .
- الحدث التخييلي هو أساسًا حدثٌ واقعي حدَثَ مع الرحالة، ولكنه ينقله إلينا بصورة تخييلية تعاكس الواقع، وتشحذ ذهن المتلقي تفاعلًا مع الموقف، حتى يصبح الواقع ضربًا من ضروب الخيال.
- تعد اللغة من أهم مكونات الخطاب الحكائي للرحلة، إلى جانب الرؤية السردية، والبناء الزماني والمكاني، والوصف، والأحداث .
- أنشأ أدب الرحلة الحجازية خطابًا خاصًّا يعد موروثًا تاريخيًّا واجتماعيًّا لصورة الحجاز في الماضي والحاضر، ونقل لنا الرحالة صورًا صادقة عن المدن والمجتمعات الإسلامية التي مروا بها، وعادات أهلها وتقاليدهم، إضافة إلى اهتمامهم بالأحوال السياسية، والأحداث التاريخية الكبرى ، كما حظي الخطاب الديني بأهمية كبرى؛ نظرًا للغاية السامية التي ترنو لها نفوس الرحالة، وهي أداء مناسك الحج والعمرة، وزيارة الأماكن المقدسة.

المراجع

- أحمد بن عبد المحسن العساف، رحلات الحج في كتب العلماء والأدباء والمستشرقين، مجلة البيان، عدد شهر ذي الحجة، عام ١٤٣١هـ.
- أحمد رمضان أحمد، الرحلة والرحالة المسلمون، دار البيان العربي، دمشق، ط١.
- أحمد رحيم الخفاجي، المصطلح السردي في النقد الأدبي الحديث، دار الصادق الثقافية، عمان، ط١، ٢٠١٢م .
- ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، مصر، مج٣، ج١٨.
- إغناطيوس غوتيريث، مقال: أسفار الأندلسيين وتكوين الخصوصية الإسبانية لأدب الرحلة، ارتياد الآفاق، مدريد، ٣/ ٢٠١٠/١١.
- إغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ترجمة: صلاح الدين عثمان هاشم، الإدارة الثقافية في جامعة الدول العربية، القاهرة، ١٩٦٣م .

- إبراهيم أنيس الكاسح، مقال الخطاب الديني واستثمار ممكنات النص الإبداعي، شبكة الألوكة، ٢٠١٣/٩/٢٤.
- أمبرتو إيكو، القارئ في الحكاية التعاضد التأويلي في النصوص الحكائية، تر: أنطوان أبو زيد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط١،سنة ١٩٩٦م .
- بطرس البستاني، دائرة المعارف، مطبعة المعارف، بيروت، سنة. ١٨٨٤م .
- جيرالد برنس، المصطلح السردي، ترجمة: عابد خزندار، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣،
- حسني محمود حسن، أدب الرحلة عند العرب، دار الأندلس، بيروت، ط٢، سنة ١٩٨٣ م.
- سعيد جبار، من السردية إلى التخيلية: بحث في الأنساق الدلالية في السرد العربي، منشورات ضفاف ـ دار الأمان، ط١، ٢٠١٣م .
- شعيب حليفي، الرحلات العربية: النص وخطاب الهوية، ندوة الخرطوم ٢٠٠٥م .
- شعيب حليفي، الرحلة في الأدب العربي، رواية للنشر والتوزيع، القاهرة، ط١، سنة ٢٠٠٦ م .
- شوقي ضيف، أدب الرحلات، دار المعارف، القاهرة، ط٤..
- صلاح الدين الشامي، الرحلة عين الجغرافيا المبصرة، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط٢، سنة١٩٩٩م .
- طوني موريسون، صورة الآخر في الخيال الأدبي، ترجمة: محمد مشبال، منشورات مشروع البحث النقدي ونظرية الترجمة، المغرب، ط١، ٢٠٠٦م
- عمر عبد العزيز، بنية الرحلة في القصيدة الجاهلية الأسطورة والرمز، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠٩م .
- رشيد بنحدو، النص الأدبي من الإنتاج إلى التلقي، أطروحة مقرونة بكلية الآداب بفاس، إشراف حسن المنيعي، ١٩٩١م .
- عبد الله الحقيل، رحلة الحج في أدب الرحلات، صحيفة الجزيرة، العدد ١٤٦٥٤، عام ١٤٣٣ هـ ،و العدد ١٢٨٥٤، ١٤٢٨/١١/٢٨.
- عبد النبي اصطيف، مقال: نظرية الأجناس الأدبية، الموسوعة العربية.
- عدنان اليافي، المدينة المنورة في أعين رحالة غربيين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، ط١، ٢٠١٢م .
- عبد الله آل حمادي، أدب الرحلة في المملكة العربية السعودية، رسالة ماجستير: جامعة أم القرى، مكة، ١٩٩٧م .
- عبد السلام المسدي، الأسلوبية والأسلوب ، الدار العربية للكتاب، القاهرة، ط٣.
- عبد الحميد المحادين، جدلية المكان والزمان والإنسان في الرواية الخليجية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ٢٠٠١م
- عبد الرحيم الكردي، السرد العربي في الرواية المعاصرة (الرجل الذي فقد ظله نموذجًا)، منشورات جامعة الطائف، ٢٠٠٣م .
- محمد غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار الثقافة للطباعة والنشر، ط١،سنة ١٩٩٠ م .
- محمد حاتمي، مقال: في الخطاب الرحلي، مجلة فكر ونقد، العدد ٨٧ .

- محمد بن حسن الشريف، المختار من الرحلات الحجازية إلى مكة والمدينة، ج٢، دار الأندلس الخضراء، جدة، ط١، ٢٠٠٠م.
- محمد المبارك، استقبال النص عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٩٩٩م .
- مفيدة بنوناس، تمظهر الخطاب الديني في الرواية المغاربية المعاصرة، مجلة الأثر، العدد ١٣، مارس ٢٠١٢م .
- مجدي وهبه وكامل المهندس، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، ط٢، ١٩٨٤م .
- ناصر الموافي، الرحلة في الأدب العربي حتى نهاية القرن الرابع الهجري، دار النشر للجامعات المصرية - مكتبة الوفاء، القاهرة، ط١، ١٩٩٥م .
- هدير حسن، مقال: أدب الرحلات يواجه الانقراض، موقع دار الكتب، ١٠/١/ ٢٠١٢.
- هدية جيلي، ظاهرة الانزياح في سورة النمل، رسالة ماجستير - جامعة منتوري، الجزائر، ٢٠٠٦م .
- ورقاء يحيى قاسم، مقال: النص الأدبي وإشكالية التجنيس، موقع الشاعرة بشرى البستاني .
- يوري م. لوتمان، بنية النص السردي، ترجمة: عبد النبي اصطيف، فصول «مجلة النقد الأدبي»، زمن الرواية (الجزء الأول)، ١٩٩٣م .